سلسلة بحوث وتحقيقات مختارة من مجلة الحكمة (٢٧)

عليكم بالسنة

فإن السنة مفتاح القرآن

بقلم

محمد داليوسفي

قام بنشره

أبو مهند النجدي

Almodhe1405@hotmail.com

almodhe@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْـــدًا لِرَبّـــي خَـــالِقِ الأَكْـــوَانِ ... حَمْـــدًا يَزِيـــدُ الثِّقْـــلَ في المِيـــزَانِ

ثُـــمَّ الصـــلاةُ والتَّحيَّـــاتُ عَلَـــى ... خَيْـــرِ العِبَـــادِ المُصْـــطَفَى العَـــدْنَانِي

كـــذَا عَلـــى الِ النَّبِـــيّ وصـــحْبِهِ ... ومَنِ اقْتَـــدَى بِهِـــمُ عَلَـــى الإيمـــانِ

يَـــا حَـــائِرًا في هَـــذِهِ الـــدُّنيَا وَمَـــنْ ... يَبْغِي نَجَـــاةً مِـــنء لَظَـــى الـــنيرَانِ

أقْبِلْ عَلَـــى هَـــدْيِ النَّبِـــيِّ مُحمَّـــدٍ ... مَنْ خُـــصَّ بَـــيْنَ الخَلْـــقِ بـــالقُرْآنِ

فَهُوَ الّـــذي يُعْطِيـــكَ عِـــزًّا دَائِمًـــا ... لا ســـيَّمَا في حَضْـــرَةِ الـــرَّحْمنِ

في هَدْيِـــهِ سُـــبُلُ الحَيَـــاةِ كَرِيمَـــةٌ ... خُطَّـــتء لنَـــا مِـــنْ خـــالقٍ دَيَّـــانِ

هُوَ خَالِقٌ هُوَ مُبْدِعٌ هَـــوَ مَـــنْ لَنَـــا ... وَضَـــعَ السَّـــبِيلَ بأَحْسَـــنِ التِّبْيَـــانِ

مَنْ سَارَ مُقْتَفِيًا خُطَـــى سَـــلفٍ لَنَـــا ... قَدْ فَـــازُوا في الـــدَّارَيْنِ بالرِّضْـــوَانِ

أمِـــنَ العِثَـــارَ لأَنَّـــهُ نَهْـــجٌ لَـــهُ ... ضُمِنَ الهُـــدَى مِـــنء مُبْـــدِعٍ مَنَّـــانِ

فَعَلَـــيْكُمُ بالسُّـــنَّة مَـــا إنْ تَمَـــ ... ـــسَّكتُمْ بِهَا نِلْتُمْ هُـــدَى الـــرَّحْمنِ

مَوْعِظَةٌ قَـــدْ قالَهـــا خَـــيرُ الـــوَرَى ... فَامْسكْ بِهَـــا بالأيْـــدِي وَالأسْـــنَانِ

أعْنِـــي كتَـــابَ رَبِّنَـــا فِيـــهِ الهُـــدَى ... والسُّـــــنَّةَ القَوِيمَـــــةَ البُنْيَـــــانِ

سُـــنةُ خَيْـــرِ الخَلْـــقِ ظَلَّـــتْ تَوْأمًـــا ... لِكِتَـــاب رَبِّـــي الخَـــالِقِ الـــدَّيَّانِ

فَالسُّـــنَّةُ الْغَـــرَّاءُ لِلْقُـــرْآنِ كَالْـــ ... ـــمِفْتَاحِ لِلْكَنْـــزِ فَخُـــذْ تِبْيَـــانِي

في آيـــهِ الْمُطْلَـــقُ وَالْمُجْمَـــلُ، فَـــا ... لتَّقْييـــدُ والتَّبْـــيِينُ كَالبُرْهَـــانِ

كَـــذَلِكَ الْمَنْسُـــوخُ وَالعَـــامُ وَمَـــا ... يَحْتَـــاجُ للتَّخصـــيص وَالإتْقـــانِ

كُونُـــوا حُمَـــاةَ السُّـــنَّةِ الْغَـــرَّاءِ لا ... تُلْقُـــوا بِهَـــا في عَـــالَم النسْـــيَانِ

فَالـــدينُ قـــالَ اللهُ قـــالَ رَسُـــولُهُ ... فَكِلاهُمَـــا مُســـتَوْجبًا الإذْعـــانِ

فـــافْهَمْ كِتَـــابَ اللهِ فَهْمًـــا جَيِّـــدًا ... واعْمَـــلْ بِمَـــا فيـــهِ بـــلا نُقْصَـــانِ

والسُّـــنَّةَ الغَـــرَّاءَ لا تُهمِـــلْ فَلِلْـــ ... ـــإسْـــلامِ والـــدينِ هُمَـــا أصْـــلانِ

فصل

إيَّـــاكَ وَالآرَاءَ لا تَجْعَـــلْ لَهَـــا ... في الـــدِّينِ حُكْمًـــا دُونَمـــا بُرْهَـــانِ

أنَّـــى تَحِـــلُّ دِمَاؤُنَـــا وَفُرُجُنَـــا ... بِمُجَـــرَّدِ الـــرَّأي بـــلاَ سُـــلطَانِ

أوْ تُؤْخَذُ الأَمْـــوَالُ وَالأَمْـــلاكُ بـــل ... أعْرَاضُـــنَا بِـــالرَّأْيِ مِـــنْ إنْسَـــانِ

فصل

يَـــا سَـــالِكًا سُـــبلَ الغِوَايَـــةِ وَالـــرَّدَى ... مَهْـــلاً فَقَـــدْ أَسْـــرَفْتَ في النُّكْـــرَانِ
ارْجِـــــعْ إلى رَبِّ كَـــــرِيمٍ غَـــــافِرٍ ... لِلـــذَّنْبِ ذِي فَضْـــلٍ وَذِي إحْسَـــانِ
كَمْ مَنْ صَـــرِيعٍ مَـــاتَ مُلْتَبِسًـــا بَمَـــا ... يَنْهَـــى الإلـــهُ وطاعَـــةِ الشّـــيْطَانِ
مِنْ تـــارِكٍ سُـــنَنَ الـــزَّوَاجِ وَحِصْـــنِهِ ... مُسْتَمْسِـــكِينَ بِوَصْـــمَةِ الأخْـــدَانِ
أوْ قاصِـــدٍ بُلْـــدَانَ كُفْـــرٍ رَاغِبًـــا ... فِيمَـــا لَـــدَيْهِمْ مِـــنْ حُطَـــامٍ فَـــانِ
أَوْ تَـــارِكٍ حَتَّـــى الصَّـــلاةَ وَمَـــا دَرَوْا ... أنَّ الصـــــلاةَ تَـــــوْأَمُ الإيمَـــــانِ
فَـــإذَا نَصـــحْتَهُمُ بِـــأَنْ لا يَشْـــتَرُوا ... لَهُـــمُ فَسَـــادَ الكُفْـــرِ بالإيمَـــانِ
أوْ قُلْتَ لا تَشْـــرُوا الْهِدَايَـــةَ بـــالرَّدَى ... رُدُّوا علَيْـــكَ بمَنْطِـــقِ السَّـــكْرانِ
فَاحْذَرْ أَخِي مِـــنْ أنْ تَكُـــونَ كَمِـــثْلِهِم ... أوْ أَنْ تبيـــعَ الهَـــدْىَ بـــالخُسْ﴿انِ
مِنْهَاجُنَـــا هُـــوَ مَـــا عَلَيْـــهِ مُحَمَّـــدٌ ... صَـــلى عَلَيْـــهِ مُنَـــزِّلُ الفُرْقَـــانِ
هُوَ مَا علَيْـــهِ الآلُ وَالأصْـــحَابُ مِـــنْ ... دِيـــنٍ قَـــوِيمٍ ثَابِـــتِ الأرْكَـــانِ

فصل

وَاحْـــذَرْ أُنَسًـــا شـــيَّدُوا دُورًا لَهُـــمْ ... لا لِلْهِدَايـــةِ بَـــلْ لِشَـــيْءٍ ثَـــانِ
جَعَلُوا لَهَـــا قُبَبًـــا مُزَخْرَفَـــةً وَكَـــمْ ... صَـــادُوا بِهَـــا الأمْـــوَالَ بالبُهْتَـــانِ
يَا لَيْتَهُمْ فِي الصَّـــيْدِ بالْمَـــالِ اكْتَفَـــوْا ... بَـــلْ شَـــبَّهُوا الجُـــدْرَانَ بالأوْثَـــانِ
وتَوَسَّلُوا بِقُبُـــورِ مِـــنْ ظَنُّـــوا بِهِـــمْ ... قُرْبًـــا مِـــنَ اللهِ العَظِـــيمِ الشَّـــانِ
كَيْ يَشْفَعُوا لَهُـــمُ وَيَنْجُـــوهُمْ غَـــدًا ... عِنْدَ الْحِسَابِ مِـــنْ لَظَـــى الـــنِّيرَانِ
لَـــمْ يَعْلَمُـــوا أنَّ الأُلى يَـــدْعُونَهُمْ ... يَرْجُونَ أنـــهْ يَـــدْنُوا مِـــنَ الـــرَّحْمنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْـــــدًا لِرَبّـــــي خَـــــالِقِ الأَكْـــــوَانِ حَمْـــــدًا يَزِيـــــدُ الثِّقْـــــلَ في الْمِيـــــزَانِ
ثُـــــمَّ الصَّـــــلاَةُ وَالتَّحِيَّـــــاتُ عَلَـــــى خَيْـــــرِ العِبَـــــادِ المُصْـــــطَفَى العَـــــدْنَانِي
كَـــــذَا عَلَـــــى آلِ النَّبِـــــيّ وَصَـــــحْبِهِ وَمَـــــنِ اقْتَـــــدَى بِهِـــــمُ عَلَـــــى الإِيمَـــــانِ

الحمد هو الثناء على الله تعالى بجميل صفاته على قصد التعظيم، فالله سبحانه وتعالى وهو المستحقُّ لجميع صفات الحمد؛ لأنه هو المنعم المتفضِّل على جميع الخلق، وهو المصدر لكل خير، فأيُّ حمد يصدر عن أية جهة، فالله سبحانه وتعالى يستحقه، فهو المربي للبشر، والمهذّب لهم بإنزال شرائعه عليهم، وبطبيعتهم التي طبعهم عليها ملهمة بالتفريق بين الفجور والتقوى، والباطل والحق، فقد هدى الناس النجدين وبيّن لهم السبيلين.

فاللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا خالدًا مع خلودك، ولك الحمد لا منتهى له دون علمك، ولك الحمد حمدًا لا منتهى له دون مشيئتك، ولك الحمد حمدًا لا آخر لقائله إلا رضاك.

(**حمدًا يَزيدُ الثِّقْلَ في المِيزَان**) وذلك لما رواه أبو مالك الحارث بن عاصم الأشعري عن رسول الله ﷺ: "**الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ ما بَيْنَ السّمَاء والأَرْض، والصّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءً، وَالقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ حُجَّةٌ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**" [1].

والصلاة التي هي من الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرةُ والثناء على نبيه عند الملائكة، ومن الملائكة الاستغفار والدعاءُ، ومن الجن والإنس التضرُّع والدعاء (والتحيات) وهو التسليم الذي هو تسليم الله سبحانه وتعالى، والذي أمرنا به في قوله تعالى: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (الأحزاب: من الآية٥٦).

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٤٣٢، ٣٤٣، ٣٤٤)، ومسلم (٣/ ٩٩) بشرح النووي، وابن ماجه (٢٨٠)، والنسائي.

(**خَيْرِ الْعِبَادِ**): أفضل خلقه بلا تردد، لأحاديث كثيرة دالة على ذلك، منها: قوله ﷺ: "**أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ**" (١).

(**عَلَى آلِ النَّبِيّ**): اختلف في آل النبي ﷺ، مَنْ هُمْ؟

"قيل: إن آل النبي ﷺ هم الأمة جميعًا، قال النووي في شرح مسلم: وهو أظهرها، قال: وهو اختيار الأزهري وغيره من المحققين" انتهى.

وإليه ذهب نشوان الحميري إمام اللغة، ومن شعره في ذلك:

آلُ النَّبِيّ هُمْ أتْبَاعُ مِلَّتِهِ ... مِنَ الأعَاجِمِ وَالسُّودَانِ وَالْعَرَبِ

لَوْ لَمْ يَكُن آلُهُ إلا قَرَابَتَهُ ... صَلّى المُصَلّي عَلَى الطَّاغِي أبِي لَهَبِ

ويدل على ذلك أيضًا قول عبد المطلب من أبيات له:

"وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَلِيبِ ... وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكَ"

والمراد بآل الصَّليب أتباعه، ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ لأن المراد بآله أتباعه... (٢).

كما يدلُّ على ذلك أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

يَا حَائِرًا في هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَنْ ... يَبْغِي نَجَاةً مِنْ لَظَى النِّيرَانِ

أقْبِلْ عَلَى هَدْيِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... مَنْ خُصَّ بَيْنَ الخَلْقِ بِالْقُرْآنِ

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٠٠) في التفسير، باب { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } عن أبي هريرة بلفظ: "**أنا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**"، وهو حديث الشفاعة الطويل.

ومسلم (١٩٤) في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة مترلة. ورواه مسلم أيضًا (٢٢٧٨) في الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: "**أَنَ سَيِّدُ وُلْدِ آدمَ يَومَ القيَامةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأوَّلُ مشفَّعٍ**" وأخرجه أحمد والترمذي.

(٢) نيل الأوطار (٢/ ٣٠١).

فَهْـــوَ الـــذي يُعْطِيـــكَ عِـــزًّا دائِمًـــا لا سِـــــيَّمَا في حُـــــرَةِ الـــــرَّحْمنِ

(يا حَائِرًا): نداء لكل حائر يريد أن يجد له طريقًا يدخل به الجنة، وينجو من عـــذاب الله يـــوم القيامة، وهذا يجب أن يكون مبتغى كل مسلم يؤمن بالله واليوم والآخر، وهذا هو الذي دعا معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يطلب من النبي ﷺ أن يخبره بعمل يقربه من الجنة ويبعده من النار، كما سيأتي نص الحديث بتمامه إن شاء الله تعالى.

(أقبلْ علَى هَدْي النبيّ مُحَمَّدٍ): هديُ النبي ﷺ هو السبيل الذي نجا به السابقون وينجـــو بـــه اللاحقون ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَـــا كَـــانَ مِـــنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:١٦١].

هذا هو السبيل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، هذا هو السبيل الذي اهتدى إليه إبراهيم عليه السلام وجميع الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم، الإسلام العظيم، سبيل الحنيفية السمحة التي ليلـــها كنهارها.

فهدي النبي محمد ﷺ هو هدي جميع الأنبياء والمرسلين، حيث إن الله جلّ وعلا بعث جميع أنبيائه بالإسلام من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الآنبياء نبينا محمد ﷺ، ولو أنهم متفاوتون بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت جميعها بشريعة نبيًا محمد ﷺ الـــتي لا تنســـخ أبـــد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولذلك قـــال عليـــه الصـــلاة والسلام: **"أنَا أوْلَى النَّاس بابْنِ مَرْيَمَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، لَيْسَ بَيني وَبَينَه نَبيٌّ، وَالأَنْبِيَاءُ إخْوَةٌ، أبْنَاءُ عَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ"** [1].

فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى، فالدين واحد، وهو عبادة الله وحـــده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٥٣، ٣٥٤) في الأنبياء، ومسلم رقم (٢٣٦٥) في الفضائل، وأبو داود (٤٦٧٥) باب التخيير بين الأنبياء.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

يقول سبحانه وتعالى لرسوله إلى الثقلين الجن والإنس آمِرًا له أن يخبر الناس، أن هذه سبيله، أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي.

(مَنْ خُصَّ بَيْنَ الخَلْقِ بِالقُرآنِ): لقد خص نبينا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء بالقرآن العظيم. يقول عليه الصلاة والسلام، فيما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنء نَبيٍّ مِنَ الأنْبِيَاءِ إلا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِليَّ، فَأرجُو أَنْ أكونَ أكْثَرَهُمْ تَبَعًا يَوْمَ القِيَامَةِ"(١).

(فَهُوَ الذي يُعطيكَ عِزًّا دائمًا... إلخ): وذلك لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً) [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] يخبر سبحانه عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، والفردوس أعلى الجنة وربوتها، كما جاء في الصحيحين: **"إذَا سأَلْتُمُ اللهَ الجَنّةَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإنّهث أَعْلَى الجَنّةِ، وَأَوْسطُ الجَنّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أنهارُ الْجَنّةِ"**(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً ﴾ [الفرقان:١٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٥، ٦) فضائل القرآن، ومسلم رقم (١٥٢) في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠) باب درجات المجاهدين في سبيل الله. ورواه الترمذي (٢٥٣٠، ٢٥٣١) ولم أجده في صحيح مسلم.

يقول الله تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس، وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون حراكًا، ولا استنصارًا ولا فكاكًا مما هم فيه؟

أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاءً ومصيرًا على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها ولهم فيها ما يشاؤون من الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس، ومساكن، ومراكب، ومناظر، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبدًا، دائمًا سرمدًا، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا يبغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضّل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً ﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، وأنه وعد واجب" (١).

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: **"مَثَلث مَا بَعثَني الله بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْم كمَثَلِ الغيْثِ الكثيرِ، أصَابَ أرْضًا، فَكَانَ مِنها نَقيةٌ قَبلَتِ المَاءَ فأنْبَتَتِ الْكلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أجَادِبُ أمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهِ النّاسَ فِشَرِبُوا وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وأصَابتْ مِنهَا طَائِفَةً أُخْرَى إنّما هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسكُ مَاءً وَلاَ تُنْبتُ كَلأً، فَذَلِك مَثَلُ مَنْ فَقِه فِي دين الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمَثلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا ولَمْ يقْبَلْ هُدَى الله الذِي أرسلتُ بِهِ"** (٢).

فِي هَدْيِهِ سُبُلُ الحَيَاةِ كرِيمَةٌ خُطّتْ لَنَا مِنْ خَالِقٍ دَيَّانِ
هُوَ خالِقٌ هُوَ مُبْدِعٌ هوَ مَنْ لَنَا وَضَعَ السَّبِيلَ بأحسَنِ التِّبْيَانِ

قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾[المائدة: ٣] هذه أكبر نعمه الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (١٥/ ٤٦) بشرح النووي.

الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحلّه ولا حرام إلا ما حرّمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف. كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة. ولهذا قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً ﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه" [(١)].

أخرج السيوطي بسنده عن ابن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس نتذاكر السنة، فقال مالك: "السُّنةُ سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرِق" [(٢)].

وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أنه قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله كأنّ هذه موعظة مودِّعٍ، فماذا تعهدُ إلينا؟ قال: **"أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"** [(٣)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: **"لقد سألتَ عن عظيم، وإنّه ليسيرٌ على من يسرَهُ الله تعالى علَيْه، تعبدُ الله ولا تُشركُ بهِ شيئًا، وتُقيمث الصلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رَمضانَ، وتحجُّ البيتَ إنِ استطعتَ إليهِ**

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢).

(٢) المفتاح للسيوطي ص ٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وإسناده صحيح، وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وابن ماجه في المقدمة (٤٢).

سبيلاً" ثمّ قالَ له: "**ألاَ أدلكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصَّومث جُنَّةٌ، والصدقةُ تُطفئ الخطيئَةَ كمَا يُطفئُ الماءُ النارَ، وَصلاة المَرْءِ في جوْفِ الليل**".

ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بَلغَ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾.

ثُم قال: "**ألا أُخبرك برأسِ الأمرِ وعمودِهِ وذَروةِ سَنَامهِ؟**" قُلْتُ: بَلَى، يَا رسُولَ الله، قالَ: "**رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وَعَمُودُهُ الصلاةُ، وَذَرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ**" ثُم قال: "**ألا أُخْبِركَ بِملاكِ ذَلِكَ كُلّهِ؟**" قلتُ: بَلى، يَا رَسُولَ الله، فأخذَ بلسَانهِ ثمّ قال: "**كُفَّ عَلَيْكَ هَذا**" قلتُ: يَا نبيَّ الله، وإنّا لَمُؤَاخَذُونَ بمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقَالَ: "**ثَكِلَتْكَ أُمُّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وجوههِمْ** – أوْ قالَ – **على مَناخرِهِمْ إلا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟!**" (١).

مَنْ سَارَ مُقْتَفيًا خُطَى سَلَفٍ لَنَا	قَدْ فَازُوا في الدَّارَيْنِ بالرِّضْوَانِ
أَمِنَ العِثَارَ، لأنهُ نَهْجٌ لَهُ	ضُمِنَ الهُدَى مِنء مُبْدعٍ مَنَّانِ
فَعَلَيْكُم بالسُّنَّةِ مَا إنء تَمَـ	ـسَكْتُم بِهَا نِلْتُمْ هُدَى الرَّحْمنِ
مَوْعِظَةٌ قَدْ قَالَهَا خَيْرُ الْوَرَى	فَامْسِكْ بهَا بالأيْدِي والأسْنَانِ
أعْنِي كِتَابَ رَبِّنَا فِيهِ الهُدَى	وَالسُّنَّةَ القَويمَةَ البُنْيَانِ

إن الله سبحانه وتعالى قد أثنى على الذين اتبعوا الصحابة بإحسان، فهذا دليل على أن اتباعهم صواب، وليس بخطأ، لأنه لو كان خطأً لكان غاية صاحبه أن يعفي له عنه، لا أن يجازى بالرضاء عنه، وإدخاله الجنة، فالرضوان عمن اتبعهم دليل على أن اتباعهم صواب.

وكذلك قال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥] وكل من الصحابة منهيب إلى الله تعالى فيجب اتباع سبيله.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وابن ماجه في سننه (٣٩٧٣) وهو حديث صحيح بطرقه. جامع الأصول (٩/ ٥٣٥) حاشية.

وأقوالُه واعتقاداته من أكبر سبيله، والديل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله قد هداهم، وقال: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧].

وقال: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

كما أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بأن نكون معهم في قوله الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

قال ابن القيم رحمه الله: "قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم، فبهم يأتمُّ في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم، وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء وإن وافقهم في غيره لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم فتنتفي عنه المهعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط" [(١)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وغيره: "بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق حيث كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم، ونحن نشهد بالله أنهم وفوا بهذه البيعة، وقالوا بالحق، وصدعوا به، ولم تأخذهم في الله لومةه هلائم، ولم يكتموا شيئًا منه مخافة سوط ولا عصا ولا أمير ولا والٍ كما هو معلوم لمن تأمله من هديهم وسيرتهم، فقد أنكر أبو سعيد علي مروان وهو أمير على المدينة (وأنكر) عبادة بن الصامت على معاوية وهو خليفة، (وأنكر) ابن عمر على الحاج مع سطوته وبأسه، (وأنكر) على عمرو بن سعيد، وهو أمير على المدينة. وهذا كثير جدًا من إنكارهم على الأمراء والولاة إذا خرجوا عن العدل، لم يخافوا سطوتهم ولا عقوبتهم" [(٢)].

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: "إن الله نظر في قلوب عباده فوجد قلب محمد ﷺ خير القلوب فاختاره لرسالته، ثم نظر في قلوب الناس بعده فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته، وجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيّه، فما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٨٧).

(٢) إعلام الموقعين (٣ ٣٩٦).

رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح، وقد أمرنا رسول الله ﷺ باتباع سنة خلفائه الراشدين، وبالاقتداء بالخلفيتين" [1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩].

هذا أمهر من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بإطاعة الله ورسوله وأولياء أمور المسلمين من المسلمين، كما هو أمر منه تعالى بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يردَّ التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فدلَّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، و لم يرجع إليهما فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر.

(أَمِنَ العِثَارَ): أي إن من يقتفي آثار السلف الصالح وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ﷺ الذين شهد لهم الرسول بالخير بقوله: **"خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"**[2] (أَمِنَ العِثَارَ) على الطريق، وتأكد بأن ما هو عليه هو الطريق المستقيم الذي عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام، وجملة (أمن العثار) خبر المبتدأ (مَنْ)، وجملة (قدر فازوا) صفة لكلمة (سلف) المضاف إليه، وجملة (له ضمن الهدى) صفة لكلمة (نهج)، فالصحابي إذا قال قولاً، أو حكم بحكم أو أفتى بفتيا فله مدارك ينفرد بها عنا، ومدارك نشاركه فيها.

فأما ما يختص به، فيجوز أن يكون سمعه من النبي ﷺ شفاهًا، أو من صحابي آخر عن رسول الله ﷺ فإنّ ما انفردوا به من العلم عناع أكثر من أن يحاط به، فلم يَزْوِ كلّ منهم كل ما سمع، وأين ما سمعه الصدِّيق رضي الله عنه، والفاروق وغيرهما من كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى ما

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١ ٣٧٨، ٤١٨)، والبخاري (٣/ ١٥٠)، ومسلم (٧ ١٨٤) (١٦/ ٨٤) بشرح النووي.

رووه؟ فلم يَروِ عنه صديق الأمة مائة حديث، وهو لم يغب عن النبي ﷺ في شيء من مشاهده، بل صحبه من حين مبعثه، بل قبل المبعث إلى أن توفي، وكان أعلم الأمة به ﷺ وبقوله وفعله وهديه وسيرته. وكذلك أجلة الصحابة، روايتهم قليلة جدًا بالنسبة لما سمعوه من نبيهم، وشاهدوه، ولو رووا كلّ ما سمعوه وشاهدوه لزاد على رواية أبي هريرة أضعافًا مضاعفة، فإنه إنما صحب النبي ﷺ نحوًا من أربع سنين، وقد روي عنه الكثير.

فقول القائل: "لو كان عند الصحابي في هذه الواقعة شيء عن النبي ﷺ لذكره، قول مَن لم يعرف سيرة القوم، وأحوالهم، فإنهم كانوا يهابون الرواية عن رسول الله ﷺ ويعظمونها ويقلّلونها خوفًا من الزيادة والنقص، ويحدّثون بالشيء الذي سمعوه من النبي ﷺ مرارًا، ولا يصرّحون بالسماع، ولا يقولون قال رسول الله ﷺ.

فتلك الفتوى التي يفتي بها أحدهم لا تخرج عن أن:

١- يكون سمعها من النبي ﷺ.

٢- أو سمعها ممن سمعها منه.

٣- أو يكون فهمها من آية من كتاب الله فهمًا خفي علينا.

٤- أو يكون قد اتفق عليها ملؤهم ولم ينقل إلينا إلا قول المفتي بها وحده.

٥- أو يكون لكمال علمه باللغة ودلالة اللفظ على الوجه الذي انفرد به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب، أو لمجموع أمور فهموها على طول الزمان من رؤية النبي ﷺ، ومشاهدة أفعاله، وأحواله، وسيرته، وسماع كلامه، والعلم بمقاصده، وشهود تنزيل الوحي، ومشاهدة تأويله بالفعل، فيكون فهم ما لا نفهمه نحن.

وعلى هذه التقادير الخمسة تكون فتواه حجة يجب اتباعها" [1].

(**فضْلٌ**): هذا فيما انفرد به عنا.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٩٨، ٣٩٩).

أما المدارك التي شاركناهم فيها من دلالات الألفاظ والأقيسة، فلا ريب أنهم كانوا أبـــرَّ قلوبًـــا، وأعمق علمًا، وأقل قلوبًا، وأعمق علمًا، وأقلَّ تكلفًا، وأقرب إلى أن يوفقوا فيها لما لم نوفق له نحن، لما خصهم الله تعالى به من توقُّد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وســـهولة الأخـــذ، وحســـن الإدراك، وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوى الرب تعالى، فالعربيـــة طبيعتـــهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظـــر في الإســـناد، وأحوال الرواة، وعلل الحديث، والجرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعـــد الأصـــول، أو أوضـــاع الأصوليين، بل قد اغتنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران:

أحدهما: قال الله تعالى كذا، وقال رسوله كذا.

والثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرة مجتمعة عليها [1].

قال الشافعي رحمه الله: العلم طبقات:

الأولى: الكتاب والسنة.

الثانية: الإجماع فيما ليس كتابًا ولا سنة.

الثالثة: أن يقول صحابي فلا يعلم له مخالف من الصحابة.

الرابعة: اختلاف الصحابة.

الخامسة: القياس.

هذا كل كلامه في الجديد، قال البيهقي بعد أن ذكر هذا: وفي الرسالة القديمة للشافعي بعد ذكر الصحابة وتعظيمهم قال: "وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل" [2] "**عليكُم بِسُنَّتِي**.. إلخ".

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٨٠).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران: ٣١، ٣٢].

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية بأنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **"مَنْ عَمِلَ ليسَ عليهِ أمرُنَا فَهوَ رَدٌّ"** ولهذا قال: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: "ليس الشأن أن تُحب، إنما الشأن أن تُحَبَّ" [(١)].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "اتَّبِعُوا، ولا تَبْتدعوا، فقد كُفيتم، فإنَّ كل محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ" وقال أيضًا: "إنَّا نَقْتدِي ولاَ نَبْتَدي، ونتَّبعُ ولاَ نبتدِعُ ولَنْ مَا تَمسَّكْنَا بالأثَرِ".

وقال أيضًا: "إياكُم والتَّبدعَ، وإيَّاكمْ والتَّنَطعَ، وإياكُمْ والتَّعَمُّقَ، وعليكُمْ بالدينِ العَتيقِ" [(٢)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [لأنفال:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢].

قال تعالى آمرًا لكل أحد من خاص وعام: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فدلَّ على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محبٌّ لله، ويتقرّب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والأنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٤٠٠، ٤٠١).

العزم منهم في زمانه، ما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته [1]، وما أحسن قول القائل:

تَعْصي الإلـــهَ وأَنْـــتَ تَـــزعمُ حُبَّـــهُ ... هَـــذَا لَعمْـــرِي في القيَـــاسِ بَـــديعُ
لَـــوْ كَـــانَ حُبُّـــك صَـــادِقًا لأطَعْتَـــهُ ... إنَّ المُحِـــبَّ لِمَـــنْ يُحِـــبُّ مُطِيـــعُ

فصل

سُـــنَّةُ خَيْـــرِ الخلْـــقِ ظلَّـــتْ تَوْأَمًـــا ... لِكِتَـــابِ رَبِي الخَـــالِقِ الـــدَّيَّانِ
فالســـنَّةُ الغَـــرَّاءُ للقُـــرْآنِ كَالْـــ ... ـــمِفْتَاحِ للْكَنْـــزِ فَخُـــذْ تِبْيَـــانِي
في آيـــهِ المُطْلَـــقُ والمُجْمَـــلُ فَـــا ... لتَّقْيِيـــدُ والتَّبْـــيِينُ كَالْبُرْهَـــانِ
كَـــذلِكَ المَنْسُـــوخُ والعَـــام وَمَـــا ... يَحْتَـــاجُ لِلتَّخْصِـــيصِ والإتْقَـــانِ

يقول ابن القيم رحمه الله: "السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما.

فما كان منها زائدًا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه، ولا تحلّث معصيته، وليس هذا تقديمًا لها على كتاب الله، بل امتثال لِما أمر الله به من طاعة رسوله ﷺ، ولو كان رسول الله ﷺ لا يطاع في القسم هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وأنه

(١) ابن كثير (١/ ٣٥٨).

إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه، لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] (١).

وقد صرَّح النبي ﷺ بوجوب طاعته، وأن طاعته هي طاعة الله بقوله الكريم: **"مَنْ أطاعَنِي فقدْ أطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ أطَاعَ الأميرَ فَقَدْ أطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الأميرَ فقدْ عَصَانِي"** (٢).

وعن المهقدام بن منعد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"ألاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحديثُ عَنِّي وهُوَ مُتَّكِيءٌ عَلَى أرِيكَتِهِ فيَقُول: بَينَنَا وبَينَكُمْ كِتابُ الله، فَمَا وَجَدْنَا فيهِ حَلالاً استَحْلَلْنَاهُ، ومَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله كَمَا حَرَّمَ الله"** (٣).

وفي رواية: **"ألاَ إنِي أوتيتُ هَذَا الكتَابَ وَمثْلَهُ مَعَهُ، ألا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ علَى أريكتِهِ يقُولُ: عليكُمْ بِهذَا القُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فيهِ منْ حلالٍ فأحلُّوهُ، وَمَا وجَدْتُمْ فيهِ مِنْ حَرَام فحَرِّمُوهُ، ألاَ لا يَحِلُّ لكُمْ الحِمَارُ الأهْلِيُّ، ولاَ كُل ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاع، ولا لُقْطَةُ مُعَاهَدٍ إلاَّ أنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أنء يُقْرُوهُ، فإنْ لَمْ يُقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ"** (٤).

وقد بيّن العلماء منزلة السنة من الكتاب فيما يأتي:

١- تفصيل مجمله، كبيان مواقيت الصلاة وكفيَّتها، وبيان أنصبة الزكاة، والمقدار الواجب في كل نصاب، وبيان مناسك الحج، وغير ذلك مما فصَّلته السنة من مجملات القرآن.

٢- تحديد مطلقه، كتحديد القطع في السرقة باليمين، وبيان أنه من الكوع.

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٧) (٦/ ١٣٥) فتح الباري، وأخرجه مسلم (١٢/ ٢٢٣) بشرح النووي.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٦٦) في العلم وقال: حديث حسن.

(٤) رواه أبو داود (٤٦٠٤) وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣٠، ١٣٢) وابن ماجه (١٢) في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ.

٣- تخصيص عامّه، كتخصيص قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾ الآية، الشامل للوالد الكافر، بحديث الصحيحين **"لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ، ولاَ الكَافِرُ الْمُسْلِمَ"** (١).

وكتخصيص الآية المذكورة، بالوارث القاتل في قوله عليه الصلاة والسلام: **"لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِيرَاثٌ"** (٢) وفي رواية **"لاَ يَرِثُ القَاتِلُ مِنَ المَقْتُولِ شيئًا"** (٣) وفي رواية: **"لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِنَ المِيرَاثِ شَيْءٌ"** (٤).

وكتخصيص قوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤] بنهيه ﷺ أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، لقوله عليه الصلاة والسلام: **"لا يُجْمَعُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلاَ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا"** (٥).

وكتخصيص عمومن قوله تعالى: ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤٥] بنهيهن عليه الصلاة والسلام **"عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ"** (٦) **"وَعَنْ أَكْلِ كُلِّ ذي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ"** (٧).

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٣)، ومسلم (١٦١٤)، ومالك (٢/ ٥١٩)، وأبو داود (٢٩٠٩)، والترمذي (٢١٠٨)، وابن ماجه (٢٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٤٠)، وأحمد (٥/ ٢٠٠) وغيرهم.

(٢) رواه الدارقطني (٤ ٢٣٧).

(٣) رواه أبو داود (٤٥٦٤) والبيهقي (٦/ ٢٢٠).

(٤) رواه النسائي (٨/ ٤٢، ٤٣) وابن ماجه (٢٦٤٦) وفي الزوائد، إسناده حسن، والبيهقي (٦/ ٢٢٠) وعزاه أيضًا في "تلخيص الحبير" إلى مالك الشافعي.

(٥) رواه البخاري (٤٨٢٠) ومسلم (١٤٠٨) ومالك (٢/ ٥٣٢) وأبو داود (٢٠٦٥ – ٢٠٦٦) والترمذي (١١٢٦) والنسائي (٦/ ٩٦، ٩٨) وابن ماجه (١٩٢٩) والبيهقي (٧/ ١٦٥) وأحمد (٢/ ٤٦٢، ٤٦٥).

(٦) رواه البخاري (٥٢١٠) ومسلم (١٩٣٢) ومالك (٢/ ٤٩٦) وأبو داود (٣٨٠٢) والترمذي (١٤٧٧) والنسائي (٧/ ٢٠١) وابن ماجه (٣٢٣٢).

(٧) رواه مسلم (١٩٣٤) وأبو داود (٣٨٠٣/ ٣٨٠٥) والنسائي (٧/ ٢٠٦) وغيرهم.

٤- وتوضيح مشكله: كتفسيره ﷺ المراد من الخيط الأبيض والخيط الأسود بأنهما بياض الصبح وسواد الليل.

٥- وبيان معنى لفظ أو متعلقه، كبيان المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى.

٦- وبيان النسخ، كنسخ حديث **"لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ"** [١] لقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

كما تنسخ السنة بالكتاب، كنسخ استقبال بيت المقدس الثابت بالسنة بقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

كُونُوا حُمَاةَ السُّنَّةِ الْغَرَّاءِ لاَ ... تُلْقُوا بِهَا فِي عَالَمِ النِّسْيَانِ

فَالدِّينُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... فِكِلاهُمَا مُسْتَوجِبا الإذْعَانِ

فَافْهَمْ كِتَابَ اللهِ فَهْمًا جَيِّدًا ... وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ بِلاَ نُقْصَانِ

والسُّنَّةَ الغَرَاءَ لا تُهْمِلْ فَلِلْـ ... ـإسلامِ وَالدينِ هُمَا أصْلانِ

قال الشافعي رحمه الله: "فقد ضيّق رسول الله ﷺ على الناس أن يردوا أمره، بفرض الله عليهم اتباع أمره" [٢].

"فقد أُمِرَ المسلمون أن يتبعوا سنة النبي ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، حيث إن سنتهم رضوان الله تعالى عليهم من سنته ﷺ، فسنته هو ما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديمًا لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله.

وقد صحّ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: إِنَّكُمْ قد أصبحتُم اليومَ علَى الفِطرَة وإنكُمْ ستُحدِثُونَ، ويحدَثُ لكُمْ، فإذَا رأيتم مُحْدَثَةً فَعَلَيْكُمْ بالعَهْدِ الأوَّلِ.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٦، ١٨٧) وأبو داود (٢٨٧٠) والترمذي (٢١٢٠) وقال: حسن صحيح.

(٢) رسالة الشافعي (١/ ٢٢٦).

وابن مسعود قال هذا في زمن الخلفاء الراشدين.

وروى ابن حميد عن مالك قال: "لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الأَهْوَاءِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ"، وكان مالك يشير بالأهواء إلى ما حدثَ من التفرُّق في أصول الديانات من أمور الخوارج والروافض والمرجئة، ونحوهم ممن تكلم في تكفير المسلمين، واستباحة دمائهم وأموالهم، أو في تخليدهم في النار، أو في تفسيق خواص هذه الأمة، أو عكس ذلك، من زعم أن المعاصي لا تضر أهلها، وأنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد.

وأصعب من ذلك ما أحدث من الكلام في أفعال الله تعالى في قضائه، وقد مرد وكذب بذلك من كذب، وزعم أنه نزّه الله بذلك عن الظلم.

وأصعب من ذلك ما حدث من الكلام في ذات الله وصفاته مما سكت عنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون لهم بإحسان.

فقوم نفوا كثيرًا مما أورد في الكتاب والسنة من ذلك، وزعموا أنهم فعلوا تنزيهًا لله عما تقتضيه العقول بتنزيهه عنه، وزعموا أن لازم ذلك لمستحيل على الله عز وجل.

وقوم لم يكتفوا بإثباته حتى أثبتوا بإثباته ما يظن أنه لازم له بالنسبة إلى المخلوقين.

وهذه اللوازم نفيًا وإثباتًا درج صدر الأمة على السكوت عنها" [1].

(فالدِّينُ قالَ اللهُ قالَ رسُولهُ): قال ابن القيم رحمه الله: "من تأمَّل سيرة القوم – الصحابة – رأى أنهم كانوا إذا ظهرت لهم السنة لم يكونوا يدعونها لقول أحد كائنًا من كان، وكان ابن عمر يدع قول عمر إذا ظهرت له السنة، وابن عباس ينكر على من يعارض ما بلغه من السنة بقوله: قال أبو بكر وعمر، ويقول: يُوشكُ أن تَنزِلَ عليكُمْ حِجَارةٌ من السَّمَاءِ؛ أقولُ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ، وتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ" [2].

وقال أيضًا رحمه الله: **(فصل)**: "وأما نقلهم لتركه ﷺ فهو نوعان وكلاهما سنة:

---

(١) جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب ص ٢٥٤.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٣٢٦).

أحدهما: تصريحهم بأنه ترك كذا وكذا، ولم يفعله، كقولهم في شهداء أحدٍ: ولم يغسلهم ولم يصلِّ عليهم، وغير ذلك.

الثاني: عدم نقلهمه لما لو فعله لتوفرت هممهم ودواعيهم أو أكثرهم أو واحدٍ منهم على نقله، فحيث لم ينقله واحد منهم البتة، ولا حدث به في مجمع أبدًا، علم أنه لم يكن. وهذا كتركه التلفظ بالنية عند دخوله في الصلاة، وتركه الدعاء بعد الصلاة مستقبل المأمومين، وهم يؤمنون على دعائه دائم"ًا بعد الصبح والعصر، أو في جميع الصلوات، وتركه رفع يديه كل يوم في صلاة الصبح بعد رفع رأسه من الركوع الثانية وقوله: اللهم اهدني فيمن هديت، يجهر بها ويقول المأمومون كلهم: آمين. ومن الممتنع أن يفعل ذلك ولا ينقله عنه صغير ولا كبير ولا رجل ولا امرأة البتة، وهو مواظب عليه هذه المواظبة لا يخل به يومًا واحدًا. وغير ذلك.

ومن هنا يعلم أن القول باستحباب ذلك خلاف السنة، فإن تركه ﷺ سنة، كما أن فعله سنة، فإذا استحببنا فعل ما تركه كان نظير استحبابنا ترك ما فعله، ولا فرق" [1].

وما أحسن قول الحافظ الذهبي رحمه الله:

العِلْمُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... إن صَحَّ والإجْمَاعُ فَاجْتَهِدْ فِيهِ

وحَذَارِ مِنْ نَصْبِ الخِلافِ جهَالَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيهِ [2]

وقول الشافعي رحمه الله:

كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلاَّ الحَدِيثَ وَإلا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ

الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ: حَدَّثَنَا ... وَمَا سِوَى ذَاكَ وِسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ [3]

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٤٠).

(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للألوسي البغدادي ص ٣٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية للعلامة علي بن علي بن محمد بن أبي العز، ص ١٠.

فصل

إِيَّاكَ وْالآرَاءَ لاَ تَجْعَــلْ لَهَــا ... فِي الدِّينِ حُكْمًا دُونَمــا بُرْهَــانِ
أَنّى تُحَلُّ دِمَاؤُنَــا وَفُرُوجُنَــا ... بِمُجَــرَّدِ الــرَّأْيِ بِــلاَ سُــلْطَانِ
أَوْ تُؤْخَذُ الأَمْوَالُ والأَمْلاكُ بَلْ ... أَعْرَاضُنَا بِــالرَّأْيِ مِــنْ إِنْسَــانِ

روى البخاري ومسلم عن أبي وائلة أنه قال: "لَمَّا قَدِمَ سَهْلُ بنُ حنيف من صفين أتيناه نستخبره، فقال: اتهمُوا الرَّأْي، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أبي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ علَى رسُولِ الله ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُهُ، واللهُ وَرَسُولُه أَعلَمُ" (١).

وعن صالح بن مسلم قال: "سألت الشعب يعن مسألة من النكاح؟ فقال: إن أخبرتك برأيي فَبُلْ عليه. قالوا: فهذا قول الشعبي في رأيه، وهو من كبار التابعين، وقد لقي مائة وعشرين من الصحابة، وأخذ من جمهورهم" (٢).

وعن حماد بن زيد قال: قيل لأيوب السختياني: ما لك لا تنظر في الرأي؟ فقــال أيــوب: قيــل للحمار: ما لك لا تجتر؟ قال: أكره مضغ الباطل (٣).

وقال معن بن عيسى القزاز: سمعت مالكًا يقول: "إنما أنا بشر أخطيءُ وأصيبُ، فانظروا في قولي، فَكلُّ ما وافق الكتابَ والسنَّةَ فخذوا به، ومَا لم يوافقِ الكتابَ والسنةَ فاتركُوهُ" (٤).

قال ابن القيم رحمه الله: وأمها المتعصبون فإنهم عكسوا القضية، ونظروا في السنة، فمــا وافــق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحايلوا في رده، أو رَدِّ دلالتهِ، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندًا

(١) أخرجه البخاري (٤١٨٩).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨٤).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٨٦).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٨٧).

ودلالةً، وكان يوافق قولهم قبلوه ولم يستجيزوا ردِّه، واعترضوا به على منازعيهم، وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه، ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم دفعوه ولم يقبلوه" (١).

(والمقصود): أن أحدًا ممن بعد الصحابة، لا يساويهم في رأيهم، وكيف يساويهم؟ وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته، كما رأى عمر رضي الله تعالى عنه.

١ - في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته.

٢ – ورأى أن تحجب نساء النبي ﷺ، فنزل القرآن بموافقته.

٣ – ورأى أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى، فنزل القرآن بموافقته.

٤ – وقال لنساء النبي ﷺ لما اجتمعن في الغيرة عليه: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ فنزل القرآن بموافقته.

٥ – ولما توفى عبد الله بن أبيّ، قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوبه، فقال: يا رسول الله إنه منافق! فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عليه: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ (٢).

وقال علي بن عبد العزيز البغوي: "ثنا أبو الوليد القرشي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن بكار القرشي، ثنا سليمان بن جعفر، ثنا محمد بن يحيى الربعي عن ابن شبرمة قال: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد بن الحنفية فسلمت عليه، وكنت له صديقًا، ثم أقبلت على جعفر وقلت له: أمتع الله بك، هذا رجل من أهل العراق وله فقه وعقل، فقال جعفر: لعله الذي يقيس الدين برأيه، ثم أقبل علَيَّ فقال: أهو النعمان؟ فقال له أبو حنيفة: نعم، أصلحك الله، فقال له جعفر: اتفق الله ولا تقس الدين برأيك، فإنَّ أول من قاس إبليس إذ أمره الله بالسجود لآدم فقال: أنا خير منه خللقتني من نار وخلقته من طين.

---

(١) (١/ ٨٧).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٩٣).

ثم قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أولها شرك وآخرها إيمان؟ فقال: لا أدري، قال جعفر: هي لا إله إلا الله، فلو قال: لا إله، ثم أمسك كان مشركًا، فهذه كلمة أولها شرك وآخرها إيمان، ثم قال له: ويحك، أيهما أعظم عند الله: قتل النفس التي حرم الله، أو الزنى؟ قال: بل قتل النفس، فقال له جعفر: إن الله قد قبل في قتل النفس شاهدين، و لم يقبل في الزنى إلا أربعة، فكيف يقومن لك قياس؟

ثم قال: أيهما أعظم عند الله: الصوم أو الصلاة؟ قال: بل الصلاة، قال: فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ اتق الله يا عبد الله ولا تقس، فإنا نقف غدًا نحن وأنت بين يدي الله، فنقول: قال الله عز وجل، وقال رسول الله ﷺ، وتقول أنت وأصحابك: قسنا ورأينا، فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء" [1].

وقال ابن القيم رحمه الله: نقول لمن يفتي أو يحكم يقول من يقلِّده: هل تقول: إن هذا هو دين الله الذي أرسل به رسوله، وأنزل به كتابه وشرعه لعباده، ولا دين له سواه؟

أو تقول: إن دين الله الذي شرعه لعباده خلافه؟ أو تقول: لا أدري.

لا سبيل لك إلى الأول قطعًا، فإن دين الله الذي لا دين سواه لا تسوغ مخالفته، والثاني: لا تدَّعيه، فليس لك ملجأ إلا الثالث..

فيا لله العجب، كيف تستباح الفروج والدماء والأموال والحقوق، وتحلل، وتحرم، بأمر أحسن أحوالها وأفضلها، لا أدري؟؟

فَإنْ كُنتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإنْ كنتَ تدْرِي فَالُمصِيبةُ أَعظَمُ" [2]

وقال الحافظ ابن رجب: "ومما حدث في الأمة بعد عصر الصحابة والتابعين، الكلامُ في الحلال والحرامه بمجرد الرأي، ورَدُّ كثيرٍ مما وردت به السنة في ذلك لمخالفته الرأي والأقيسة العقلية، ومما حدث بعد ذلك الكلام في الحقيقة بالذوق، والكشف، وزعم أن الحقيقة تنافي الشريعة، وأنالمعرفة

(١) المصدر السابق (١/ ٣١١).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٨).

وحدها تكفي مع المحبة، وأنه لا حاجة إلى الأعمال، وأنها حجاب، أو أن الشريعة إنما يحتاج إليها العوام، وربما انضَمَّ إلى ذلك الكلام في الذات والصفات بما يعلم قطعًا مخالفته الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(١).

وقال الحافظ في الفتح عند الكلام على حديث الخضر عليه السلام: "ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة، فقالوا: إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم، لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى عليه السلام، ويؤيِّده الحديث المشهور: **"اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ"**.

قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر، لأنه إنكار لما علم من الشرائع، فإن الله قد أجرى سنته، وأنفذ كلمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، المبيِّنين لشرائعه وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وقال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به، وحث على طاعتهم، والتمسك بما أمروا به، فإنَّ فيه الهدى، وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك، فمن ادعى أن هناك طريقًا أخرى يعرف بها أمرُه ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر، يقتل، ولا يستتاب، قال: وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا، لأن من قال: إنه يأخذ من قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه، من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة كما قالن نبينا ﷺ: **"إنّ روحَ القدُسِ نفثَ في رُوعِي"** قال: وقد بلغنا عن بعضهم

(١) جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب ص ٢٥٤.

أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: "آخذ عن قلبي عن ربي" وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع" ونسأ الله الهداية والتوفيق" [1]. انتهى.

فصل

يَا سَالِكًا سُبْلَ الغِوَايَةِ وَالرَّدَى ... مَهْلاً فقدْ أسْرفْتَ في النُّكْرَانِ

ارْجِعْ إلى رَبٍّ كَرِيمٍ غَافرٍ ... لِلذَّنْبِ ذِي فَضْلٍ وَذِي إحْسَانِ

كَمْ مِنْ صَرِيعٍ ماتَ مُلْتَبِسًا بِمَا ... يَنْهَى الإلهُ، وَطَاعَةِ الشَّيْطانِ

مِنْ تَارِكٍ سُنَنَ الزَّوَاجِ وَحِصْنِهِ ... مُسْتَمْسِكينَ بِوَصْمَةِ الأخْدَانِ

أَوْ قَاصِدٍ بُلْدَانَ كُفْرٍ رَاغِبًا ... فِيمَا لَدَيْهِمْ مِنْ حُطامٍ فَإنِ

أَوْ تَارِكٍ حَتّى الصَّلاةَ وَمَا دَرَوْا ... أنَّ الصلاةَ تَوْأَمُ الإيمَانِ

فَإذَا نَصَحْتَهُمُ بِأَنْ لا يَشْتَرُوا ... لَهُمْ فَسَادَ الكُفْرِ بالإيمَانِ

أَوْ قُلتَ لا تشرُوا الْهِدَايَةَ بِالرَّدَى ... رَدُّوا عَلَيْكَ بِمَنْطِقِ السَّكْرَانِ

هذا نداء لكل من ضلّ طريق الهدى، واتبع طريق الغواية والردى، ورزقه الله عقلاً، وفهمًا مميزًا أن يترك طريق الغواية، ويتوجه إلى ربه الغفور الرحيم الذي خلق الثقلين لعبادته، وخلق النوع الإنساني فصوّره وأحسن صوره، نداء إليه ليتوب إلى الله توبة نصوحًا، وذلك بأن يندم على ما اقترفت يداه في غوايته، ويصمم على أن لا يعود إلى ذلك، وإن كان عليه حق لآدمي ردَّه عليه إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن لم يستطع رَدّ ذتلك الحق دعا لصاحب الحق بعد أن يبذل كل ما في وسعه من إرجاع الحق إلى أهله، فإن التوبة النصوح تَجبُّ ما قبلها، كما جاء في الصحيح.

فارجع إلى ربك – أيها الغافل – قبل أن يفوت الأوان، وحين ذاك لا ينفع الندم، وقبل أن تقول: ﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٦٧) طبع المكتبة السلفية.

فإنك لا تردي متى يحين أجلك، فتقف أمام ربك فيحاسبك على ما قدمت من عمل، فتَدَارَكْ نفسك قبل أن تندم حين لا ينفع الندم، وضعْ أمام عينيك حال الذين خرجوا عن الطريق المستقيم، وسلكوا السبل الملتوية المشبوهة، ثم انظر إلى عاقبة أولئك، حين يأتيهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، فيصبحون كأن لم يغنوا بالأمس، ولا تلحقهم إلا لعنات المسلمين وغضب رب العالمين.

ترى قسمًا منهم مضربًا عن الزواج الشرعي رغم أمر النبي ﷺ بالزواج لمن يستطيع ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: **"يَا مَعْشَرَ الشَّبَاب، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإنَّه أغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"** (١).

فيترك ما أحله الله له، ويبحث عن دور المومسات الساقطات صباح مساء، حتى إذا أدركه المشيب، وأصبح عاجزًا عن كل شيء، هناك يظهر بؤسه وشقاؤه، فلا ولدَ يساعده، ولا عائلة تؤويه، فيصبح خاسرًا الدنيا والآخرة.

وترى قسمًا آخر يترك وطنه وأهله وأقرباءهُ، وحتى زوجته وأطفاله، قاصدًا بلدان الكفر لأجل حطام الدنيا، ناسيًا أن رزقه مقسوم ولن يموت حتى يستكمله سواء في وطنه أو في الغربة، فيترك دينه وشرفه وعزتهِ، فيغدوا غريبًا ذليلاً، ويعمل في شتى الأعمال الدنيئة الذليلة من غسل للمواعين وكنس للشوارع وخدمة على أبواب الحانات والمطاعم، وغيرها من الأعمال التي كان يستنكف عن ذكرها حينما كان في بلده، فيتركون واجباتهم الدينية، ويصبحون كأنهم مجردُ حيوانات، تأكل وتشرب وتنام، حتى إذا أحدهم الموت قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

قال عليه الصلاة والسلام: **"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتنًا كقِطعِ اللَيْلِ المُظلِم، يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسي كافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا"** (٢).

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٠٦) ومسلم (١٤٠٠) وأبو داود (٢٠٤٦) والترمذي (١٠٨١) والنسائي (٤/ ١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١١٨) في الإيمان، والترمذي (٢١٩٦) في الفتن.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"إن عَرْشَ إبْلِيسَ علَى البَحْرِ، فيَبْعثُ سَرَايَاهُ، فَيُفْتِنُونَ النَّاسَ، فأعْظَمُهُمْ عِندَهُ أعظَمُهُمْ فِتنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيئًا، ثُمَّ يَجيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: ما تَرَكْتُهُ حَتّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنيهِ مِنْهُ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نعْمَ أَنْتَ"** (١).

وقال ﷺ: **"قَدْ أفْلَحَ مَنْ أسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَّنَعَهُ اللهُ بِمَا أَتَاهُ"** (٢).

وقال: **"إنَّ أولَ مَا يُحاسَبُ بهِ العَبْدُ يومَ القيَامَةِ مِن عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فَإن صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإن انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيئًا، قالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتعَالَى: انْظُرُوا، هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكْمَلُ بِهَا ما انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ مِثْلَ ذَلِكَ"** (٣).

فيا أيها الإنسان الذي زوّدك الله سبحانه وتعالى بالعقل، وبيّن لك سبيل الخير من سبل الشيطان، تفكَّر في أمر نفسك، واسأل عقلك: لماذا خلقك الله سبحانه وتعالى؛ أللأكل والشرب والنوبة كبقية الحيوانات؟ أم خلقك لعبادته وأرسل إليك رسوله وأنزل إليك كتابه ينطق بالحق ويهدي إلى سواء السبيل؟

فاختر لنفسك ما ينجيك غدًا من غضب الله وعذابه. فاللهَ اللهَ في نفسك وأَهلك لئلا تُنسى يوم القيامة في النار وتخسر نفسكَ وأهلكَ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: ١٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٣) في صفات المنافقين.

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤) في الزكاة، والترمذي (٢٣٤٩) في الزهد.

(٣) رواه الترمذي (٤١٣) والنسائي (١/ ٢٣٢) وأحمد في المسند/ ٥/ ٧٢، ٣٧٧) والحاكم (١/ ٢٦٣) وهو حديث صحيح بشواهده.

وقال ﷺ: **"يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لكَ سَمْعًا وبَصَرًا ومَالاً وَوَلَـدًا، وسَخَّرْتُ لَكَ الأنْعامَ والْحَرْثَ، وتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَكُنْتَ تَظُنُّ أنّكَ مُلاقي يَوْمَكَ هَذا؟ قَالَ: لاَ، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أنْسَاكَ كمَا نَسيتَني"** (١).

فَاحْذَرْ أَخِي مِنْ أن تَكُونَ كَمِثْلِهِمْ أَوْ أَنْ تَبِيعَ الهَدْيَ بالخُسْرَانِ

فحذار حذار أن تكون من هؤلاء يوم القيامة، فتخسر كل شيء، النفس والأهل.

مِنْهَاجُنَا هُوَ مَا عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى عَلَيْهِ مُنَزِّلُ الْفُرْقَانِ

هَوَ مَا عَلَيْهِ الآلُ والأصْحَابُ مِنْ دِينٍ قَوِيمٍ ثَابِتِ الأرْكَانِ

قال ابن القيم رحمه الله: "كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على من عارض حديث رسول الله ﷺ برأي أو قياس أو استحسان، أو قول أحد من الناس كائنًا من كان، ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على من يضرب له الأمثال، ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر في قلوبهم التوقف في قبوله، حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان، بل كانوا عاملين بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾.

وبقوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وأمثالها، فدفعنا إلى زمان إذا قيل لأحدهم: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا، يقول: مَن قال هذا؟ ويجعل هذا دفعًا في صدر الحديث، ويجعل جهله بالقائل حجة له في مخالفة الحديث، وترك العمل به، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام من أعظم الباطل، وأنه لا يحلُّ له دفع سنن رسول الله ﷺ بهذا الجهل" (٢) وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالعلم لمن يرى أن ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله هو

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٨) وإسناده حسن.

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٤٦٤، ٤٦٥).

الحق، لا آراء الرجال، فقال تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾.

فمن تعارض عنده ما جاء به رسول الله ﷺ وآراء الرجال، فقدمها عليه أو توقف فيه، أو قدحت في كمال معرفته فهو أعمى عن الحق.

وقد أخبر الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ وأخبر تعالى عنه أنه سراج منير، وأنه هادٍ إلى صراط مستقيم، وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه هو المفلح لا غيره، وأن من لم يحكِّمه في كل ما تنازع فيه المتنازعون وينقاد لحكمه، ولا يكون عنده حرج منه، فليس بمؤمن، فكيف يجوز على من أخبر الله تعالى عنه بما ذكر أن يكون قد أخبر عن الله [1] بما يكون الحق في غير ماأخبر به وأنه يجوز لمن يزعم أنه مؤمن به أن يخالفه في القول والعمل؟

"وقد كان السلف يشتد عليهم معارضة النصوص بآراء الرجال، ولا يقرُّون على ذلك.

وكان ابنعباس يحتج في متعة الحج بسنة رسول الله ﷺ، وأمره لأصحابه بها، فيقولون له: إن أبا بكر وعمر قد أفردا الحجد و لم يتمتعا، فلما أكثروا عليه قال: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟".

ولما حدث حميد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ قال: "وَضَعَ إِصْبَعَهُ عَلَى طَرَفِ خُنْصُرِهِ فَسَاخَ الْجَبَلُ" أنكر عليه بعض الحاضرين وقال: أتحدّث بهذا؟ فضرب حميد في صدره وقال: أحدِّثك عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ، وتقول أتحدثَ بهذا؟ فكانت نصوص رسول الله ﷺ أجَلَّ في صدورهم وأعظم في قلوبهم من أن يعارضوها بقول أحد من الناس، ولا تثبت قدم أحد على الإيمان إلا على ذلك" [2].

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ٦).

(٢) الصواعق المرسلة ص ١٤٦، والحديث أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح وهو كما قال، وأخرجه الطبري رقم (١٥٠٨٧) و(١٥٠٨٨) والحاكم (٢/ ٣٢٠) وقال: حديث حسن على شرط مسلم.

وَاحْـــذَرْ أُنَاسًـــا شَـــيَّدُوا دُورًا لَهُـــمْ ... لاَ لِلْهِدَايَـــةِ بَـــلْ لأَمْـــرٍ ثَـــانِ
جَعَلُـــوا لَهَـــا قُبَبًـــا مُزَخْرَفَـــةً وَكَـــمْ ... صَـــادُوا بِهَـــا الأَمْـــوَالَ بِالبُهْتَـــانِ
يَا لَيْتَهُمْ فِي الصِّـــيْدِ بِالْمَـــالِ اكْتَفَـــوْا ... بَـــلْ شَـــبَّهُوا الجُـــدْرَانَ بِالأَوْثَـــانِ
وَتَوَسَّـــلُوا بِقُبُـــورِ مَـــنْ ظَنُّـــوا بِهِـــمْ ... قُرْبًـــا مِـــنَ اللهِ العَظِـــيمِ الشَّـــانِ
كَيْ يَشْفَعُوا لَهُـــمُ وَيُنْجُـــوهُمْ غَـــدًا ... عِنْدَ الحِسَـــابِ مِـــنْ لَظَـــى الـــنِّيرَانِ
لَـــمْ يَعْلَمُـــوا أَنَّ الأُلى يَـــدْعُونَهُمْ ... يَرْجُـــونَ أَنْ يَـــدْنُوا مِـــنَ الـــرَّحْمنِ

فصل

نهى رسول الله ﷺ عن البناء على القبور:

١ – ففي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: "نَهَى رسول الله ﷺ أن يُجَصَّصَ الْقَبْـــرُ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ" وفي رواية: "نَهَى عَنْ تَقْصِيصِ الْقُبُورِ" [١] والتقصيص هو التجصيص.

٢ – وأخرجه أبو يعلى [٢] بسند رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد، قال في المجمع (٦١/٣): عن أبي سعيد قال: "نَهَى نَبيُّ الله ﷺ أن يُبْنَى علَى القُبورِ، أوْ يقعَدَ عليهَا، أوْ يُصلَّى علَيْهَا".

٣ – وأخرج ابن ماجه بسند رجاله رجال الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنـــه "أن النبي ﷺ نَهَى أَنْ يُبْنَى عَلَى القَبْرِ" [٣].

هذه الأحاديث صريحة في النهي عن بناء الدور، والقباب على القبور، وأن البناء عليها خـــلاف سنّة رسول الله ﷺ وأصحابه، بل هي من سنن أهل الكتاب الذين لعنهم الرسول ﷺ على فراش موته بقوله الكريم: **"لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"** [١].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٠) وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٥، ٢٣٢، ٣٣٩) وأبو داود (٣٢٢٥) والترمذي (١٠٥٢) والنســـائي (٤/ ٨٦، ٨٨) وابن حبان (٣١٦٢/ ٣١٦٤) والحاكم (١/ ٣٧٠) وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي.

(٢) وأخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠٢٠) تحقيق حسين أسد.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٤).

وخاصة عندما علمنا من صحابته الأمر بتسوية القبور المشرفة، وطمس التماثيل، كما جاء في حديث (أبي الهياج الأسدي رحمه الله) قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ألاَ أبْعثُكَ علَى مَا بعَثَنِي علَيْهِ رسولُ الله ﷺ؟ اذْهَبْ، فَلا تَدَعْ تِمْثَالاً إلا طَمْستَهُ، ولاَ قبْرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَهُ" (٢).

فإذا كانوا يسوُّون القبور المشرفة فما بالك بالبناء عليها؟!

وقد حاول بعض المنتسبين إلى العلم من الذين يريدون أن يخالفوا ليعرفوا، أن يطعنوا في صحة هذه الأحاديث بالطعن في بعض رجال أسانيدها، فما مثلهم في ذلك إلا كمثل من يناطح الجبل ليوهنه برأسه:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يومًا لِيُوهنَهَا ... فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

ولكن هيهات أن ينالوا من صحة هذه الأحاديث، فقد أجاب علماء الجرح والتعديل عن كل مطاعنهم في رجال هذه الأسانيد، وفنَّدوا مطاعنهم، فقد اتفقت الأمة على صحة ما في الصحيحين حيث جاء حديث جابر في صحيح مسلم.

قال الحافظ السيوطي في ألفيّته:

وَانْتَقَدُوا عَلَيْهِمَا يَسِيرًا ... وَكَمْ نَرَى نَحْوَهُمَا نَصِيرَا

فقال شارحها العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله: "وقد انتقد جماعة من الحفاظ منهم الدارقطني، وأبو ذر الهروي، وأبو على الغساني، وأبو سعد الدمشقي، بعض أحاديث الصحيحين... ولكن الكثير من الحفاظ المتقنين لم يوافقوا هؤلاء على نقدهم. وقالوا: إن الشيخين أسبق أهل عصرهما فمن بعده، إلى معرفته الصحيح، والمُعَلِّ، وهما أقدر الناس على معرفة العلل القادحة، وغير القادحة، وقد ذكرا أنَّ ما في كتابيهما صحيح، فلا يخلو الحال من أن يكون ما فيهما لا علة له، أو له

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٠٣) ومسلم (٥٣٢).

(٢) رواه مسلم (٩٦٩) وأبو داود (٣٢١٨) والترمذي (١٠٤٩) والنسائي (٤/ ٨٨، ٨٩).

علة غير قادحة، وكلاهما صحيح، فإن كان المنتقد يدَّعي أن في بعضها علةً قادحةً، كان قوله هـذا معارضًا لما تضمنه قولُهما: إن ما في كتابيهما صحيح من ادعاء سلامته من العلل القادحة، ومتى تعارض قول المنتقد وقولهما، رجح قولهما على قوله لأنهما من هذا الفن في المترلة التي لا تدانيها مترلة، فهما مرجح القول فيه" [1].

ومن أراد التأكد من صحة هذه الأحاديث، وَرَدِّ انتقادات المنتقدين، فليراجع كتابَ (البناء على القبور) تأليف الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي رحمه الله، تحقيق حاكم ابن عبيسان المطيري.

وقد اتخذ بعض المحتالين قُببًا جعلوها مصايد لأموال الناس وعقائدهم، فترى الجهلة من العوام يهبون أموالهم ومزارعهم وبساتينهم لهذه القُبب والتكايا التي يديرها هؤلاء المحتالون، ظنًا منهم بأن مَنْ فيها من المقبورين سوف ينجونهم يوم القيامة من عذاب الله، حتى حدا الأمر ببعضهم أنك إذا حلّفته بالله سبحانه وتعالى أو بكتابه أسرع إلى الحلف بهما، وإذا وجهته إلى قبة من تلك القبب، أو قبر من تلك القبور، تلكأ واصفرَّ وجهه وارتعدت فرائصه خوفًا، ثم امتنع عن الحلف به، وأقرَّ على نفسه بما حلف من أجله.

وأكبر من ذلك إذا دعوت بعضًا من أولئك المغفلين إلى المحافظة على واجباتهم الدينية من صلاة وصيام وغير ذلك، أجابك بجواب قد استقر مضمونه في عقله قائلاً: إذا حافظتُ على الواجبات فما هي وظيفة الشيخ إذًا؟!

حيث أُفهم أن شيخه سينحيه دون أن يقدِّم أي عمل لله تعالى.

وترى بعضًا منهم يفح له تكية مدعيًا أن فيها قبرَ وَلِيٍّ من الأولياء، ويصبح سادنًا لها، فتراه بعد بضع من السنين وهو أغنى أهل المنطقة دورًا وبساتين، وأثاثًا، وهو لا يعمل أي عمل غير سدانة التكية، لأن الجهلة المساكين يوقفون عند موتهم ما يملكون من بساتين ويبقون عوائلهم يتضوَّرون

(١) ألفية السيوطي في مصطلح الحديث ص٢٦، ٢٧.

جوعًا، ويتكففون الناس، ناسين قوله عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: **"إِنَّك أَنْ تذَرَ ورَثَتَكَ أغْنِيَاء خَيرٌ مِنْ أن تَذَرَهُمْ عالَةً يتَكَفَّفُونَ النَّاسَ"** (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها، ولم تستحب الشريعة ذلك فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء كانت البقعة شجرة أو غيرها أو قناة جارية، أو جبلاً، أو مغارة، وسواء قصدها ليصلِّي عندها، أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله سبحانه وتعالى عندها، أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به، لا عينًا ولا نوعًا.

وأقبح من ذلك أن ينذر لتلك البقعة دهنًا لِتُنَوَّرَ بهِ، ويقول: إنها تقبل النذور، كما يقوله بعض الضالين، فإن هذا النذرَ نذرُ معصية باتفاق العلماء لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين عند كثير من أهل العلم، منهم أحمد في المشهور عنه، وعنه رواية، هي قول أبي حنيفة والشافعي، وغيرهما: أنه يستغفر الله من هذا النذر، ولا شيء عليه، وكذلك إذا نذر طعامًا من الخبز أو غيره للحيتان التي في تلك العين أو البئر، وكذلك إذا نذر مالاً من النقد أو غيره للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن هؤلاء السدنة فيهم شبهة بالسدنة الذين كانوا للات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدُّون عن سبيل الله.

فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع التي لا فضل في الشريعة للمجاورين بها نذرت معصيةٍ، وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان، والمجاورين عندها، أو سدنة (الأبداد) التي بالهند والمجاورين عندها" (٢).

"ومن السدنة من يضلل الجهال فيقول: أنا أذكر حاجتك لصاحب الضريح، وهو يذكرها للنبي، والنبي يذكرها لله" (١).

---

(١) رواه البخاري (٢٥٩١) ومسلم (١٦٢٨) ومالك (٢/ ٧٦٣) والترمذي (٩٧٥) وأبو داود (٢٨٦٤) والنسائي (٦/ ٢٤١، ٢٤٣) وأحمد (١/ ١٧٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢١٤/ ٢١٥).

ولا يعلم هؤلاء الجاهلون مَن المدفون في هذه القبور؟ ولا يعلمون أيضًا أن أصحاب تلك القبور – إن كان فيها صالح – يطلبون القرب من الله سبحانه وتعالى يرجون رحمته، ويخافون عذابه، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الاسراء:٥٧].

نرجو من الله سبحانه وتعالى العافية في الدين والدنيا والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم، آمين.

---

(١) المصدر السابق (٤٥٨).